جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة بالمنوفية

مكانة الجسد الإنساني
في
الفكر الإسلامي

إعداد الدكتور

ممدوح محمود محمد عبد الصمد

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بطنطا –
جامعة الأزهر

مكانة الجسد الإنساني في الفكر الإسلامي

ممدوح محمود محمد عبد الصمد العبد
قسم العقيدة والفلسفة، كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: mamdouhmahmoud.27@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

اهتم الإسلام بتحقيق مطالب الروح ومطالب الجسد، ولم يهمل جانبا لحساب الآخر. وقد تجلى اهتمام الإسلام بالجسد وعنايته بصحته وقوته في عدد من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي (ﷺ)، كقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ [البقرة ٢٤٧]، وكقول النبي (ﷺ): (فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا)، وقوله (ﷺ): (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف). وقد حاول هذا البحث الوصول إلى الكيفية التي فهم بها العلماء المسلمون هذه النصوص، واكتشاف فلسفتهم تجاه الجسد؛ تلك الفلسفة التي شكلت فهمهم لتلك النصوص، وساهمت في تكوين فهمنا لها، وفي تكوين فكرنا فيما يتعلق بالاهتمام بالجسد الإنساني، ونظرتنا إليه. استخدم البحث **المنهج الاستقرائي** لجمع أكبر عدد ممكن من أقوال العلماء في فهم عدد من النصوص الواردة في هذا الشأن، ثم قام **بتحليلها ونقدها** لبيان ما فيها من جوانب إيجابية يمكن قبولها، وأخرى سلبية يتعين علينا تبديلها.

ومن النتائج التي توصل إليها هذا البحث: أن نصوص القرآن والسنة ورد فيها الكثير من الأوامر التي تحض على الاهتمام بالجسد والعناية به، وأن العلماء في غالب الأحيان أولوا هذه النصوص لصالح تفضيل الروح على الجسد ولم يعطوا للجسد مكانة في حد ذاته دون النظر إلى كونه وسيلة للعبادة أو للجهاد.

الكلمات المفتاحية: الجسد – الروح – الفكر الإسلامي– تجديد الفكر الديني– القضايا الفكرية المعاصرة.

The Status of the Human Body in Islamic Thought

Mamdouh Mahmoud Mohamed Abdulsamad Al-Abd
Department of Doctrine and Philosophy, Faculty of Theology and Islamic Da'wa, Tanta, Al-Azhar Universit. Egypt.
Email: mamdouhmahmoud. 27 **@azhar.edu.eg**

Abstract

Islam cared about the demands of both the soul and the body, and did not neglect one side at the expense of the other. Islam's interest in the body and its care for its health and strength was evident in a number of verses of the Holy Qur'an and hadiths of the Prophet, such as the verse: "Indeed, God has chosen him over you and increased him abundantly in knowledge and body" [Al-Baqara 247], and the hadith of the Prophet: (Your body has a right upon you, and your eye has a right upon you." Also he said: (A strong believer is better and dearer to God than a weak believer). This research attempted to discover how Muslim savants understood these texts, and to get their philosophy towards the body. That philosophy that formed their understanding of these texts, and contributed to the formation of our understanding of them, and in the formation of our thought with regard to caring for the human body, and our view of it. The research used the **inductive method** to collect the largest possible number of scholars' sayings in order to understand a number of texts contained in this regard, and then analyzed and criticized them to show their positive aspects that can be accepted, and negative ones that we must replace.

Among the findings of this research: that the texts of the Qur'an and the Sunnah contained many commands that urge attention and care for the body,

and that savants often interpreted these texts in favor of preferring the soul over the body and did not give the body an attention as itself, regardless of being a means for worship or for jihad.

Keywords: Body - Soul - Islamic thought - Renewal of Religious thought - Contemporary Intellectual Issues.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد (ﷺ) وعلى سائر أنبياء الله ورسله، **وبعد؛**

فإن الإسلام دين الوسطية كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ [البقرة ١٤٣]، وتقتضي تلك الوسطية عدم إهمال جانب ما – في أي شيء كان– على حساب الآخر، والتزامًا بذلك فقد جاء هذا الدين لصلاح حال الإنسان وتحقيق سعادته في حياته الدنيا وحياته الأخرى بعد الموت، واتساقًا مع هذه المهمة كان لابد أن يُعنى الإسلام بكافة الجوانب التي يحتاج إليها الإنسان في صلاح الدنيا والآخرة، فنجد الإسلام قد راعى الجانب الروحي والجانب الجسدي في توجيهاته، وإذا كانت أجساد العباد في الآخرة ذات طبيعة مغايرة لطبيعة أجسادهم في الدنيا، كما يلمح إليه حديث النبي (ﷺ) في صفة أهل الجنة: (لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يَتفِلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك)، وأنهم (على خَلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا في السماء)[١] ، فإن الإسلام لم يكن ليترك أتباعه دون توجيهات تتعلق بصلاح حال جسدهم في الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾، برقم ٣٣٢٧، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم، برقم ٢٨٣٤.

وحين نتحدث هنا عن توجيهات تهتم بالجسد الإنساني فلا نعني ما يتعلق بالجسد كوسيلة لغاية أخرى، وإنما ما يتعلق بالجسد في ذاته، ويجعل الاهتمام به في ذاته عبادةً وامتثالاً لأمر الله، حتى وإن لم يكن ذلك الاهتمام من أجل أداء عبادة أو شعيرة أخرى، فعلى سبيل المثال لا يدخل في موضوع بحثنا النصوص التي تأمر بغسل أعضاء معينة من الجسد في الوضوء أو الغُسل، لأن المقصود الأبرز في هذه النصوص هو الطهارة من أجل الصلاة مثلاً، ولا يدخل في موضوع بحثنا كذلك النصوص التي تفيد حرمة جسد الإنسان المتوَفَّى، لأننا نتحدث عما يتعلق بالجسد الإنساني حال حياته، وبالمثل لا يدخل في موضوع بحثنا النصوص التي تحث على تعلم الرمي أو فنون القتال، لأن هذه النصوص مقصدها الأول هو الجهاد في سبيل الله، وهكذا.

وقد تنوعت التوجيهات التي تتعلق بصلاح حال الجسد الإنساني وتعددت في الكتاب والسنة، وهي تهدف إلى أن يكون المسلم صحيح البنية كما يكون صحيح الفكر، تهدف إلى قوة الجسد مع قوة الإيمان.

وإلى جانب العلماء الذين انصب أكثر اهتمامهم على نصوص الكتاب والسنة كانت هناك ألوان أخرى من الفكر الإسلامي تأثرت إلى حد ما بالفلسفة اليونانية – إلى جانب إتباع التوجيهات الإلهية والنبوية –، فكان للفلاسفة المسلمين رؤيتهم فيما يتعلق بالجسد الإنساني، وسوف نبحث وجهة نظرهم في هذا الجانب، كي يصبح تصورنا عن مكانة الجسد في الفكر الإسلامي أكثر شمولاً.

ولسنا في حاجة إلى أن ندلل على أن قوة الجسد وسلامته من أهم الشروط التي تكفل أن يكون كل من الفرد المسلم والمجتمع المسلم صحيحًا قويًّا سعيدًا قادرًا على النهوض بنفسه وبدينه، ومقدمًا للإسلام صورة يملؤها البهاء والازدهار، وليس الضعف والتردي الجسدي.

إننا نجد أنفسنا اليوم نمارس العديد من الأنشطة التي تهتم بالجسد – متى استطعنا ذلك – ونحث أولادنا على ممارستها منذ الصغر متى كان ذلك ممكنًا، كتعلم الرياضات المختلفة، أو إجراء تمارين منتظمة بصالات الألعاب الرياضية، أو إتباع الحميات الغذائية من أجل الوصول بجسدنا إلى صحة أفضل أو وزن أمثل، وتكتسب هذه الأنشطة من الأهمية المزيد بقدر ما يفيد منها الإسلام والمسلمون، متى كانت صادرة عن توجيهات إلهية.

والسؤال الذي يطرحه هذا البحث هو كيف نظر الفكر الإسلامي عمومًا إلى الجسد الإنساني؟ كيف تلقى العلماء المسلمون التوجيهات الدينية في هذا الشأن؟ وما هو التفسير الذي اختاروه لها؟ وما طبيعة الفكر الذي كانت له الغلبة في النظر إلى الجسد الإنساني في تراثنا؟ وهو الفكر الذي ينتقل إلينا وإلى أجيالنا التالية بطبيعة الحال كجزء من ثقافتنا الدينية والحياتية.

الدراسات السابقة

جرت العادة أن نجد بحوثًا كثيرة تتحدث عن مكانة العقل في الإسلام، أو عن اهتمام الإسلام بتلبية مطالب الروح الإنسانية، لكن لا نجد الكثير من الأبحاث التي تتعرض للجسد الإنساني، وغالبية ما يتحدث عن الجسد من أبحاث يتناوله كموضوع للتعبد أو للتشريع، ومن هذه الدراسات:

١- الضوابط الشرعية لتصرف المرأة في جسدها في الشريعة الإسلامية، دراسة فقهية مقارنة – رسالة دكتوراه بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية، للباحثة سعيدة يسن أنور رزق.

٢- الضوابط الشرعية للاعتداء على حياة الإنسان وجسده بين الحل والحرمة، دراسة فقهية مقارنة – رسالة دكتوراه بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية، للباحثة أسماء مندوه عبد العزيز.

٣- موقف القرآن والسنة من تغيير خلق الله في جسم الإنسان، رسالة ماجستير بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة، للباحثة عفاف علي حسن النجار.

وهذه الدراسات تتعلق بالجانب الفقهي التعبدي، ولا تتناول مكانة الجسد من الناحية الفكرية، مكانته في حد ذاته دون اعتباره وسيلة أو موضوعًا للأحكام، وهو صلب ما يهتم به هذا البحث.

منهج البحث

يستخدم هذا البحث المنهج الاستقرائي لتتبع أكبر عدد ممكن من نصوص القرآن والسنة المتعلقة بالجسد الإنساني، وأقوال العلماء في تفسيرها، وكذلك تتبع أقوال علماء المسلمين المعبرة عن حقيقة نظرتهم للجسد الإنساني، كما يستخدم المنهج التحليلي لفهم أقوال العلماء ومحاولة تبين منطلقاتهم وأهدافهم الفكرية في تناول ما يخص الجسد الإنساني.

تقسيم البحث

يأتي هذا البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة فتتناول أهمية الموضوع ومشكلة البحث ومنهجه والدراسات السابقة.

وأما المباحث الثلاثة فهي:

المبحث الأول: مكانة الجسد الإنساني من خلال تفسير العلماء لنصوص القرآن والسنة.

المبحث الثاني: مكانة الجسد الإنساني من خلال الفلسفة الإسلامية.

المبحث الثالث: رؤية نقدية لمكانة الجسد الإنساني في الفكر الإسلامي.

وأما الخاتمة فتشمل أهم نتائج البحث ومراجعه.

المبحث الأول
مكانة الجسد الإنساني من خلال تفسير العلماء لنصوص القرآن والسنة

اشتملت نصوص القرآن والسنة على الكثير من التوجيهات التي تهتم بالجسد الإنساني، وبقوته وصحته وسلامته، دون ارتباط ذلك بأداء العبادات والشعائر أو بالجهاد في سبيل الله، وسوف نتناول فيما يلي عددًا من تلك النصوص، ونرصد الكيفية التي فهمها بها العلماء.

١- **حديث النبي (ﷺ):** «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير».(١)

فهنا يصف النبي (ﷺ): المؤمن القوي بأنه خير وأحب إلى الله، ووصف القوة هنا عام، يشمل قوة الإيمان وقوة الجسد وقوة النفس، فكل وصف بالقوة في أي جانب – حسب مفهوم هذا الحديث – يجعل المؤمن أفضل وأحب عند الله.
لكن لو رجعنا إلى الكيفية التي فهم بها العلماء هذا الحديث النبوي الشريف لوجدناهم في غالب الأمر يصرفون معنى القوة في الحديث إلى قوة الإيمان أو القوة البدنية المستخدمة في إقامة الشعائر أو حال الجهاد في سبيل الله، وسوف نذكر عددًا من الأمثلة على هذا الفهم:

ذكر القاضي عياض عددًا من الوجوه المحتملة في فهم القوة في الحديث، ولم يذكر من بينها أي شيء يتعلق بالقوة الجسدية في غير الشعائر والجهاد؛ يقول: «القوة هنا المحمودة يحتمل أنها في الطاعة من شدة البدن وصلابة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، برقم ٢٦٦٤، وأحمد في مسنده من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، برقم ٨٧٩١.

الأسر، فيكون أكثر عملاً وأطول قيامًا وأكثر صيامًا وجهادًا وحجًّا، وقد تكون القوة هنا في المنة وعزيمة النفس فيكون أقدم على العدو في الجهاد وأشد عزيمة في تغيير المناكر والصبر على إيذاء العدو واحتمال المكروه والمشاق في ذات الله، أو تكون القوة بالمال والغنى، فيكون أكثر نفقة في سبيل الخير، وأقل ميلاً إلى طلب الدنيا والحرص على جمع شيءٍ فيها، وكل هذه الوجوه ظاهرة في القوة».[١]

فهنا نلحظ أن القاضي عياض عدَّ **احتمالات ثلاثة: الأول:** قوة البدن المستخدمة في الصلاة والصيام والجهاد والحج، **والثاني:** قوة الشخصية ورباطة الجأش واحتمال المشاق، **والثالث:** كثرة المال وإنفاقه في سبيل الله.

فالجانب البدني الوحيد الذي ذكره القاضي كاحتمال حَصَرَهُ فقط في جانب العبادات والجهاد في سبيل الله.

ويكاد تفسير النووي للحديث يقارب عبارات القاضي: «المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه، وذهابًا في طلبه وأشد عزيمةً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها ونحو ذلك».[٢]

وقد تكرر هذا التفسير بعبارات متقاربة لدى كثير من العلماء فيما بعد.[٣]

---

(١) القاضي عياض، شرح صحيح مسلم المسمى إكمال المعلم بفوائد مسلم، ١٥٧/٨.

(٢) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ٢١٥/١٦.

(٣) انظر على سبيل المثال: المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح، ٣٠٩/٥، وابن الملك، شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، ٤٣٥/٥، الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٣١٨/٨، والمناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ٨٢/١، والسندي، حاشية السندي على سنن ابن ماجة، ٤١/١، ٤٢.

وإذا كان هؤلاء العلماء قد ذكروا عددًا من الاحتمالات لفهم القوة المقصودة في الحديث ولم يذكروا من بينها القوة البدنية، فإن أبا الفرج الجوزي كان حريصًا على نفي أن تكون القوة البدنية هي المقصودة، فيقول في شرحه لهذا الحديث: «الإشارة بالقوة هاهنا إلى العزم والحزم والاحتياط، لا إلى قوة البدن».[١]

وكان يجب علينا أن ننتظر قرونًا طويلة قبل أن يظهر فهم لهذا الحديث يتضمن فيه لفظ القوة ما يتعلق بالجسد الإنساني كجانب من جوانب حياة البشر المهمة: «الإسلام يريد من أتباعه أن يكونوا أقوياء في عقولهم وفي أجسامهم وفي سائر شئونهم، لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف كما جاء في الحديث الشريف».[٢]

فإذا كان النبي (ﷺ) يصف المؤمن القوي بأنه خير وأحب إلى الله، فلماذا يجب علينا أن نحصر معنى القوة في احتمالات معينة نستبعد منها القوة الجسدية؟ ما هو الدليل أو القرينة التي تجعلنا نخصص وصف القوة في الحديث بقوة الإيمان ولا نجعله عامًّا يشمل كل جوانب القوة؟

٢- قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ [البقرة ٢٤٧].

تحكي هذه الآية الكريمة ما دار بين نبي من أنبياء الله (عليهم السلام) جميعًا – مع قومه من بني إسرائيل، حيث أخبرهم بأن الله اختار طالوت ليكون ملكًا عليهم، وهو ما لم يتقبله بنو إسرائيل لاعتقادهم بأن طالوت لا يملك مؤهلات الملك،

(١) أبو الفرج الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، ٥٥٢/٣.

(٢) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ٢٦٣/٤.

فكان جواب النبي عليهم أن الله اختار طالوت لهذه المهمة، "وزاده بسطة في العلم والجسم".

فحسب مفهوم هذه الآية تكون البسطة في العلم والجسم مؤهلات تجعل طالوت مُقَدَّمًا على غيره من بني إسرائيل في شأن الملك، فكيف فهم المفسرون الـ "بسطة في الجسم" الواردة في الآية؟

الواقع أن عددًا كبيرًا من المفسرين فهموا البسطة في الجسم بمعنى طول القامة، يقول الطبري: «وأما في الجسم فإنه أوتي من الزيادة في طوله عليهم ما لم يؤتَهُ غيره منهم».(١)

وقد تكرر مثل هذا التفسير لدى العديد من العلماء.(٢)

ولا ندري كيف يمكن أن يكون طول القامة عاملاً حاسمًا تذكره الآية في اختيار الله لطالوت ملكًا على بني إسرائيل؟ ربما اعتمد المفسرون في اختيار هذا التفسير على ما ورد في الكتاب المقدس، حيث وُصِف طالوت بأنه: «لم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه من كتفه فما فوق، كان أطول من كل الشعب»(٣)، لكن هذا الوصف لا يمكن أن يكون حاكمًا لفهمنا للآية، إذ مجرد طول القامة لا يعطي مزية لشخص على حساب الشعب كي يُعَيَّنَ ملكًا عليهم.

وقد فطن الرازي لكون هذا التفسير بعيدًا عن مقتضى الحكمة، يقول الرازي: «قال بعضهم المراد بالبسطة في الجسم طول القامة [...]، وقيل المراد من البسطة في الجسم الجمال [...]، وقيل المراد القوة، وهذا القول عندي أصح، لأن المنتَفَعَ به في دفع الأعداء هو القوة والشدة لا الطول والجمال».(٤)

---

(١) تفسير الطبري، ٣١٣/٥.

(٢) انظر على سبيل المثال: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين، ٢٤٦/١، وتفسير الكشاف للزمخشري، ٢٩٢/١.

(٣) سفر صموئيل الأول ٩: ٢.

(٤) تفسير الرازي، ٥٠٥/٦.

استبعد الرازي إذن تفسير البسطة في الجسم بمجرد الطول، لكنه حين اختار تفسيره بالقوة علَّل ذلك باحتياج تلك القوة في الجهاد في سبيل الله، ولم يتطرق لكون الصحة الجسدية في حد ذاتها مزية تجعل حياة صاحبها أفضل.

وبمثل ذلك التفسير الذي ذهب إليه الرازي قال عدد من العلماء.(١)

وكما هو الحال في الحديث السابق لم يظهر تفسير الآية بمعنى يعطي للجسد مكانة معتبرة إلا في عصور متأخرة: «بسطة الجسم وكمال قواه المستلزمة لصحة الفكر، فقد جاء في أمثالهم (العقل السليم في الجسم السليم)، وللشجاعة والقدرة على المدافعة والهيبة والوقار».(٢)

إن أهمية الجهاد في سبيل الله لا يمكن إنكارها، لكن لا يجب قصر القوة الجسدية على مجرد الحاجة إليها في الحرب، بما يجعل البسطة في الجسم في الآية الكريمة لا معنى لها في عصورنا الحاضرة، حيث ليس من مقومات المُلْكِ أن يشارك الملك في الحروب بقوته البدنية.

ووصف طالوت في الآية بأن الله منحه بسطة في العلم والجسم وصف عام، لا تتضمن الآية ما يفيد قصره على طول القامة، ولا على القوة البدنية في حال الحرب.

٣- **حديث النبي (ﷺ) الذي رواه عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال:** قال لي رسول الله (ﷺ): «يا عبد الله، ألم أُخْبَرْ أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟»، فقلت:

---

(١) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير، ٦٦٦/١، والتحرير والتنوير لابن عطية، ٤٩١/٢.

(٢) تفسير المراغي، ٢١٨/٢.

بلى يا رسول الله قال: «فلا تفعل صُمْ وأفطر، وقُمْ ونَمْ، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا [...]».(١)

ففي هذا الحديث يُوجِّه النبيُّ (ﷺ) عبدَ الله بنَ عمرو (رضي الله عنهما) إلى ضرورة الاهتمام بجسده ورعاية حق هذا الجسد، فكيف فسر العلماء حق الجسد الذي ذكره النبي (ﷺ) في هذا الحديث؟

لو تتبعنا تفسير العلماء لحق الجسد الوارد ذكره في هذا الحديث الشريف لوجدناه لا يخرج عن أداء العبادات والفرائض، ومن الأمثلة على هذا التفسير:

«قال المهلب: وحق الجسم أن يترك فيه من القوة ما يستديم به العمل، لأنه إذا أجهد نفسه قطعها عن العبادة وفَتَرَت».(٢)

فحسب هذا التفسير يكون الحفاظ على قدر من القوة في الجسم زائد عما يُحتاج إليه في العبادة – يكون مثل هذا الحفاظ – خارجًا عن حق الجسم الذي أوصى الحديث برعايته، وقريب منه هذا التفسير كذلك:

«يعني كل شيء من بدنك له عليك حق، فلا يجوز لك إضاعته وإضراره بحيث تعجز عن عبادة الله تعالى وقضاء الحقوق».(٣)

وبنحو هذا التفسير قال كثير من العلماء.(٤)

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، برقم ١٩٧٥، ومسلم في صحيحه، في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، برقم ١١٥٩.

(٢) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ١١٩/٤.

(٣) المظهري، المفاتيح في شرح المصابيح، ٤٤/٣.

(٤) انظر على سبيل المثال: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٤٠٤/٣، والملا القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٤١٩/٤.

ومرة أخرى نجد نص حديث النبي (ﷺ) عامًّا في ضرورة رعاية حق الجسد، ولم تذكر تفسيرات العلماء التي نقلنا جانبًا منها القرينة التي دفعتهم لصرف لفظ الحديث إلى معنى مخصوص.

٤- **حديث النبي (ﷺ) الذي يأمر فيه بالتداوي:** فعن أسامة بن شريك، قال: قالت الأعراب: يا رسول الله، ألا نتداوى؟ قال: «نعم، يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً، أو قال: دواءً إلا داءً واحدًا» قالوا: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «الهرم».(١)

ففي هذا الحديث يأمرنا النبي (ﷺ) بتناول الدواء من أجل الشفاء من الأمراض التي قد تصيب جسدنا، ويبدو هذا التوجيه النبوي واضحًا في العناية بجسد الإنسان، والحرص على إبقائه في صحة وقوة، دون ربط ذلك بأداء العبادات أو الجهاد في سبيل الله. فكيف فهم العلماء هذا الأمر النبوي؟

إن كثيرًا من العلماء وجهوا الأمر النبوي بأنه "للإباحة" أو "للإرشاد"، ولا يفيد لا وجوبًا ولا ندبًا، ومن الأمثلة على ذلك:

«**قال في فتح الودود:** الظاهر أن الأمر للإباحة والرخصة، وهو الذي يقتضيه المقام، فإن السؤال كان عن الإباحة قطعًا، فالمتبادر في جوابه أنه بيان للإباحة، ويُفهَم من كلام بعضهم أن الأمر للندب، وهو بعيد، فقد ورد مدح ترك الدواء والاسترقاء توكلا على الله. نعم قد تداوى رسول الله (ﷺ) بيانًا للجواز، فمن نوى موافقته (ﷺ) يُؤجر على ذلك».(٢)

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى، برقم ٣٨٥٥، والترمذي في سننه، في أبواب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه، برقم ٢٠٣٨، وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٢) العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ٢٣٩/١٠.

وقد تكرر مثل هذا التفسير لدى كثير من العلماء.[١]

السؤال كان عن الإباحة فالجواب لابد أن يكون بالإباحة هو الآخر، هذا هو الدليل الذي يستند إليه هذا التفسير، وهو دليل قائم على ظن ضعيف فيما يبدو لنا، ويُشعرنا التعبير عن رأي من يقول إن الأمر للندب بأنه "يُفهم من كلام بعضهم" وبأنه "بعيد" – يُشعرنا هذا التعبير بنظرة تضعيف شديدة لهذا الرأي الذي يجعل مداواة الجسد أمرًا مندوبًا إليه فحسب، والقرينة التي تؤكد هذا الأمر بالتداوي – وهي كون النبي (ﷺ) نفسه قد تداوى في مرضه – تم تأويلها هي الأخرى بأنها لبيان الجواز، وكأن الأمر بالتداوي لا يكفي في إيضاحه أن يقول النبي (ﷺ) "تداووا"، ويحتاج إلى بيان عملي من النبي (ﷺ) لكي يتأكد لنا أنه مباح، وينصرف ما في ذهننا من ضرورة كونه مكروهًا أو حرامًا كما كان الحال مع تحلل النبي (ﷺ) من إحرامه عام الحديبية.[٢]

وما يشير إليه الشارح من ورود ما يفيد كراهة الدواء يعني به حديث النبي (ﷺ): «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتوون ولا يَسْتَرْقون، وعلى ربهم يتوكلون».[٣]

---

(١) انظر على سبيل المثال: المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ١٥٩/٦، والبهوتي الحنبلي، شرح منتهى الإرادات، ٣٤١/١.

(٢) أمر النبي (ﷺ) أصحابه بالتحلل من إحرامهم عام الحديبية بعد أن صالح قريشًا على ألا يدخل المسلمون البيت الحرام في ذلك العام، وهو ما كرهه الصحابة (ﷺ) ولم يبادر أحد منهم إلى تنفيذ الأمر، فأشارت السيدة أم سلمة (رضي الله عنها) على النبي (ﷺ) أن يبدأ هو فيتحلل من إحرامه أمامهم، ففعل ذلك وتبعه الصحابة. انظر القصة في صحيح البخاري، في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، برقم ٢٧٣١.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾، برقم ٦٤٧٢، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم ٣٧١.

وكأننا أصبحنا أمام رأيين معتبرين في حكم تناول الدواء: رأي يقول بأنه مكروه، ورأي يقول بأنه مباح، وهذا ما صرح به بعضهم: «في الحديث دليل على أنه لا بأس بالتداوي، وبه نقول، ومن الناس من كره ذلك ويروي آثارًا تدل على كراهيته».(١)

إن أمر النبي (ﷺ) بالتداوي حين يُفهم على أنه لمجرد الإباحة، يصبح حينئذ ترك التداوي أفضل لأنه أقرب إلى التوكل، وكأن التداوي أشبه بشيء لا يجب فعله، لكن النبي (ﷺ) رخص فيه من باب الرحمة والشفقة بالأمة، ومن العلماء من صرح بذلك:

«ترك الدواء أفضل، نَصَّ عليه لأنه أقرب إلى التوكل، [...] ولا يجب التداوي ولو ظن نفعه، لكن يجوز اتفاقًا ولا ينافي التوكل».(٢)

وقد فَصَّلَ الغزالي الحالات التي يكون ترك التداوي فيها أفضل، فيقول عن ترك التداوي إنه: «فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها، أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين، أو قصُرَتْ بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهومًا كالرُّقى، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوي، وكان التداوي يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع، فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوي».(٣)

---

(١) برهان الدين الحنفي، المحيط البرهاني في الفقه النعماني، ٣٧٢/٥.

(٢) البهوتي الحنبلي، كشف القناع عن متن الإقناع، ٧٦/٢، وانظر كذلك: المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، ٢٤٧/١.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٢٩١/٤.

ولا يعير الغزالي أي اعتبار للجسد في حد ذاته، ويستند ذلك إلى رؤية الغزالي للجسد عمومًا، فالجسد في رأيه ليس أكثر من "مطية": «الدابة لا يُطلب من رياضتها عين رياضتها، بل المراد منها أن تُتَّخذ مركبًا يقطع به المراحل ويطوي على ظهره الطريق، والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة، وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق».(١)

فالجسد دابة أو مركَبَة يجب رياضتها – أي ترويضها – حتى نصل بها إلى وجهتنا، وفيما وراء ذلك لا ينبغي أن نبذل أي مجهود في صيانة المركبة في حد ذاتها.

******

بذلك نرى أنه رغم ورود العديد من الآيات والأحاديث التي تفيد ضرورة الاهتمام بالجسد الإنساني ورعاية حقه والحرص على إبقائه في أقوى وأبهى صورة، فإن الاتجاه الغالب بين العلماء كان تخصيص كل هذه النصوص لتنصب على ما يتعلق بأداء العبادات والشعائر والجهاد في سبيل الله، فكل نشاط يهدف لقوة الجسد دون أن تكون تلك القوة مرتبطة بشيء غير الجسد فهو نشاط لا يمكن أن يأمر به الشرع من وجهة نظرهم، بل قد يحاسبنا عليه، ففي بيان حكم تناول الطعام يذكر صاحب الاختيار الحالة التالية:

«ومباح وهو ما زاد على ذلك إلى الشبع لتزداد قوة البدن، ولا أجر فيه ولا وزر، ويُحاسب عليه حسابًا يسيرًا إن كان من حِلّ».(٢)

فالأكل في هذه الحالة لم يصل إلى حد التخمة المضرة، ولم يكن مصدره حرامًا، وهو مباح – كما كان التداوي مباحًا – لكننا نحاسب عليه حسابًا يسيرًا لأن هدفه كان زيادة قوة البدن فحسب، وليس أي شيء إضافي.

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٢٣٨/٢.

(٢) ابن مودود الموصلي الحنفي، الاختيار لتعليل المختار، ١٧٣/٤.

ويجعل الرازي قوة الروح والمعارف الربانية تسلك مسارًا مضادًّا لقوة البدن وكأنهما في علاقة عكسية: «أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهية، وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدانية صار كالبهيمة، وبقي محرومًا من آثار النطق والعقل والمعرفة».[١]

ونجد في هذا النص عند الرازي عبارات معبِّرة بقوة عن مكانة الجسد مثل: قهر البدن – قوة الروح وإشراق المعارف الإلهية – البهيمة.

إن الجسد في وجهة النظر تلك محل تحقير بالقياس إلى الروح أو إلى العقل – وليس ذلك مقصورًا على الاتجاه الصوفي المبالغ إلى حد ما[٢]، بل رأينا ذلك الاتجاه سائدًا بين غالبية العلماء، خصوصًا فيما قبل القرنين السابقين.

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ٤٠٣/٢١.

(٢) حرصنا في انتقاء النصوص التي نقلناها عن العلماء في تفسير هذه الآيات والأحاديث على عدم الاقتصار على نصوص المتصوفة أو الزهاد الذين اشتهروا بتحقير الجسد والتحذير من شروره.

المبحث الثاني
مكانة الجسد الإنساني من خلال الفلسفة الإسلامية

رأينا فيما سبق كيف نظر العلماء للجسد الإنساني، وكيف فسروا الآيات والأحاديث التي وردت في شأنه وحضت على الاهتمام به، فكيف كان الحال لدى الفلاسفة المسلمين الذين استفادوا – إلى جانب نصوص الكتاب والسنة – من تراث الفلسفة اليونانية؟ هل سنجد لديهم نظرة مختلفة للجسد الإنساني؟

سنعرض فيما يلي عدة نماذج تبين لنا مكانة الجسد الإنساني من خلال الفلسفة الإسلامية:

(١) ابن سينا

تناول ابن سينا في العديد من كتبه مكانة الجسد الإنساني، فيقول في النجاة:

«النفس الإنسانية – كما يظهر مِن بَعدُ – جوهر واحد، وله نسبة وقياس إلى جَنَبَتَين؛ جَنَبَة هي تحته، وجنبة هي فوقه، وله بحسب كل جنبة قوة بها تنتظم العلاقة بينه وبين تلك الجنبة، فهذه القوة العاملة هي القوة التي لها بالقياس إلى الجنبة التي دونها، وهو البدن وسياسته، وأما القوة النظرية فهي القوة التي له بالقياس إلى الجنبة التي فوقه لينفعل ويستفيد منه ويَقبَلَ عنه، وكأن للنفس منا وجهين؛ وجه إلى البدن، ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل البتة أثرًا من جنس مقتضى طبيعة البدن، ووجه إلى المبادئ العالية، ويجب أن يكون هذا الوجه دائم القبول عما هناك والتأثر منه».[١]

إن التراتب الذي يضعه ابن سينا للوجود الإنساني يجعل الجسد في أسفل الهرم، ويطلب من النفس الإنسانية أن تكون دائمة الالتفات عن الجسد والابتعاد عنه، ولا يجب أن تتأثر بأي شيء من ناحيته كي لا تنجر إلى رتبة دنيا.

---

(١) ابن سينا، النجاة، ص ٢٠٣.

ويمكن أن نفهم من ذلك أن الجسد بمثابة ثقل يشد النفس إلى أسفل، ويمنعها عن الرقي في مراتب الوجود، وهو ما يصرح به ابن سينا: «وأما إذا استَكْمَلَتِ النفس وقويت فإنها تنفرد بأفاعيلها على الإطلاق، وتكون القوى الحسية والخيالية وسائر القوى البدنية صارفةً لها عن فعلها».[١]

فالنفس في رأي ابن سينا بحاجة إلى البدن، لكنها متى وصلت إلى المعارف العالية فإن الجسد يصبح عائقًا لها، يُكسِبها – متى استجابت لمطالبه – أخلاقًا رذيلة، ويعطلها عن عملها، ويبدو واضحًا وجود تلك الثنائية المتضادة للنفس والجسد، واعتبارهما بمثابة قوتين تعملان في اتجاهين متضادين يعوق أحدهما الآخر.

وهذا ما يعيد ابن سينا تأكيده: «ثم جوهر النفس إنما كان البدن هو الذي يغمره ويلهيه ويُغفله عن الشوق الذي يخصه، وعن طلب الكمال الذي له، وعن الشعور بلذة الكمال إن حصل له، أو الشعور بألم النقصان إن قصر عنه، لا بأن النفس منطبعة في البدن ومنغمسة فيه، ولكن العلاقة التي كانت بينهما، وهو الشوق الجِبِلِّيُّ إلى تدبيره والاشتغال بآثاره[٢]، وبما يُورِدُ عليه من عوارضه[٣]، وبما يتقرر فيه من مَلَكات مبدؤها البدن».[٤]

(٢) ابن باجة

يضع ابن باجة – على غرار ابن سينا – الجسد في مقابل الروح، ويجعل العناية بأحدهما علامة على الخسة وبالآخر علامة على الشرف، يقول ابن باجة:

---

(١) ابن سينا، النجاة، ص ٢٢١.

(٢) يعني ما جُبِلَتْ أي فُطِرَتْ عليه النفس من كونها تدير شئون البدن.

(٣) أي: وبما يُورِدُ البدن على جوهر النفس من أمور عارضة للبدن.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٣٢، وانظر كذلك لابن سينا: الإلهيات من كتاب الشفاء، ص ٤٧٩، ٤٨٠.

«من الناس – كما قلناه قبل – من يراعي صورته الجسمانية فقط وهو الخسيس، ومنهم من يراعي[١] صورته الروحانية فقط، وهو الرفيع والشريف، وكما أن أخس الجسماني من لا يحفَل بصورته الروحانية عند صورته الجسمانية ولا يلتفت إليها، كذلك أفضل مراتب الشريف من لا يَحفَلُ بصورته الجسمانية ولا يلتفت إليها، لكن من لم يحفل بها أصلاً قَصَّر مدة وجوده، [...] وإذن فلا جسماني واحد سعيد، وكل سعيد فهو روحاني صرف».[٢]

إن العناية بالجسد في رأي ابن باجة هي "خسة"، وعدم الاهتمام بالجسد "شرف"، بحيث يصير من لا يهتم بجسده مطلقًا أكثر الناس شرفًا، وكلما زاد الاهتمام بالجسد كلما أصبح الشخص أكثر خسة، وكل ما يسعدنا من جهة الجسد ليس سعادةً حقيقية، والسعادة لا تأتي إلا بالاهتمام بالروح وإهمال الجسد.

ثم يرتب ابن باجة "الشرفاء" فيجعل أكثرهم شرفًا هو من يُتلف جسده متى دعته الضرورة الروحية لذلك، وهؤلاء يندُرُ وجودهم، أما أكثر الشرفاء وجودًا فهم أقل درجة من هؤلاء وهم من لا يهتمون بجسدهم مطلقًا لكن لا ينهون حياتهم، سواء لأنهم لم تضطرهم ضرورة لذلك أو اضطرتهم لكنهم آثروا إبقاء جسدهم حيًّا.[٣]

ورأي ابن باجة هنا يذكرنا بالتراتب الذي وصفه ابن سينا للوجود الإنساني، ويؤكد على وضع الجسد والروح في مسارين متعاكسين.

---

(١) في الأصل: "يعاني"، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) ابن باجة، تدبير المتوحد، ص ٦١، ٦٢.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٣) ابن طفيل

عَبَّر ابن طفيل في قصته الشهيرة – حي بن يقظان – عما سبق وعبر عنه ابن سينا من اعتبار الجسد الإنساني عائقًا للروح عن عملها، وعن تحقيق سعادتها، فالجسد بالنسبة للروح بمثابة آلام وشرور وعوائق عن السعادة العقلية والروحية.(١)

*****

يتضح لنا مما سبق أن نظرة الفلاسفة المسلمين للجسد كانت تتمثل في اعتباره من مرتبة أقل من مرتبة الروح أو النفس أو العقل، بغض النظر عن كون هذه الثلاثة شيئًا واحدًا أم لا، وكانوا يدعون إلى إهمال مطالب الجسد لصالح تحقيق مطالب الطرف الآخر، كأن الإنسان يتنازعه جانبان، أحدهما يجره إلى ما هو أسوأ وهو الجسد، والآخر يرتقي به إلى ما هو أسمى وهو الابتعاد عن الجسد.

وقد كان الفلاسفة المسلمون متأثرين إلى حد ما(٢) بالفلسفة اليونانية، خصوصًا بثلاثة من الفلاسفة هم أفلاطون، وأرسطو، وأفلوطين(٣)، ونجد أن

---

(١) انظر: ابن طفيل، حي بن يقظان، ضمن كتاب: "حي بن يقظان؛ النصوص الأربعة ومبدعوها" للدكتور يوسف زيدان، ص ٢١٦.

(٢) هناك اختلاف حول مدى تأثر الفلاسفة المسلمين بالفلسفة اليونانية، لكن لا يمكن إنكار وجود هذا التأثر، وهو ما يعنينا هنا.

(٣) ربما لم يكن الفلاسفة المسلمون يعرفون شخص أفلوطين، لأن تأثيره الكبير في الفلسفة الإسلامية كان من خلال كتاب التاسوعات الذي كتبه تلميذه فورفوريوس الصوري لعرض آراء أستاذه، وقد تُرجمت أجزاء منه إلى العربية ونُسِبَتْ إلى أرسطو باسم "أثولوجيا أرسطو"، فاعتقد الفلاسفة المسلمون أنها من كلام أرسطو. انظر: مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٦٢ وما بعدها، وعبد الرحمن بدوي، أفلوطين عند العرب، ص ١، ٢.

هؤلاء الفلاسفة الثلاثة قد أجمعوا على التقليل من شأن الجسد الإنساني بأشكال متفاوتة.

أما أفلاطون فقد كان الاتجاه السائد في فلسفته هو التقليل من قيمة العالم الموضوعي بشكل بالغ، ويتسق مع ذلك تقليله من قيمة الجسد الإنساني إلى حد بعيد، وتتعدد النصوص التي جاءت في محاوراته لهذا الغرض، لكنها تبدو شديدة الوضوح فيما جاء في محاورة فيدون:

«متى تبلغ الروح الحقيقة إذن؟ لأنها في محاولتها تأمل أي شيء برفقة الجسد فإنه يخدعها ويُضلِّلُها بكل وضوح. [...] وتكون الصفة المميِّزة للفيلسوف هنا مرة ثانية ازدراء الجسد، إن روحه تفر من جسده وترغب أن تنفرد بنفسها، [...] ما دمنا في الجسد وما دامت الروح ممتزجة بشروره فإن رغبتنا لن ترتوي، [...] إن الجسد هو أصل ومنبع كل ما يُلهي، والاضطراب العقلي لا يُحصَى بسبب الحاجة للغذاء فقط، وهو معرض أيضًا للأمراض التي تتخطانا وتعوق سبيلنا في متابعة الحقيقة، إنه يملأنا بالحب والشهوات والخوف والوهم من كل نوع وبغباوة لا تنتهي».[1]

تبدو عبارات أفلاطون بالغة الدلالة على تحقيره للجسد الإنساني وازدرائه له، ووصفه بكونه مصدرًا للشرور والـ"غباوة" التي لا تنتهي.

وأما أرسطو صاحب التأثير الأكبر في فلاسفة المسلمين – وعلى الرغم من خلافه مع أستاذه أفلاطون في جوانب عدة من فلسفتهما – فقد وافقه في التقليل من شأن الجسد الإنساني، وإن كان ذلك بصورة أخف مما ذهب إليه الأستاذ، وأكثر اتساقًا مع فلسفته التي تعطي للعقل المكانة الأسمى، فيعتبر أرسطو أن القوة الجسدية أمر متاح لجميع الناس؛ الوضيع منهم والخسيس والشريف، لكن

(١) أفلاطون، المحاورات الكاملة، ٣/٣٧٣ – ٣٧٥ باختصار.

الجزء القدسي الأرقى في الإنسان هو العقل، فهذا هو الجزء الذي يجب أن ينال أكبر قدر من الاهتمام.(١)

ومن بين ثلاثة أقسام للخيرات يختار أرسطو الخيرات النفسية باعتبارها هي الخيرات الحقيقية على حساب الخيرات الجسدية.(٢)

فإذا انتقلنا إلى أفلوطين الذي يسير مذهبه إلى حد كبير خلف مذهب أفلاطون فلن نجد عنده ما يغاير احتقار أفلاطون للجسد الإنساني، بل سنجد نفس نبرة الحديث عن القيود والقبور والـ"غباوة"، يقول أفلوطين عن النفس والجسد:

«إننا نفترضهما إذن ممتزجين، وإذا امتزجا صلح شرهما وفسد خيرهما: يصلح الجسد إذ يُمَدُّ بالحياة، وتفسد النفس [إذ](٣) أُشرِكَتْ في الموت والغباوة. [...] النفس شريرة ما دامت ممتزجة مع الجسد، [...] فالجسم لها قيد وقبر».(٤)

ونخلص من ذلك إلى أن الفلاسفة المسلمين تأثروا بجانب من الفلسفة اليونانية كان شديد الميل إلى التحقير من شأن الجسد الإنساني، وكان يعده شرًّا وعائقًا أمام النفس أو العقل، وربما كان هذا أحد الأسباب التي دفعت الفلاسفة المسلمين إلى تبني هذا الرأي.

(١) أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ك١٠ ب٦، ٧، (٣٥٢/٢، ٣٥٣).

(٢) أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ك١ ب٦، (١٩٨/١).

(٣) في الأصل: "إذا" ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٤) فورفوريوس الصوري، تاسوعات أفلوطين، الفصل الأول من التاسوع الأول ص٥٢، ٥٣، والفصل الثاني من التاسوع الأول ص٦١، والفصل الثامن من التاسوع الرابع ص ٤٠٩.

المبحث الثالث

رؤية نقدية لمكانة الجسد الإنساني في الفكر الإسلامي

رأينا في المبحثين السابقين كيف كان الاتجاه الغالب في الفكر الإسلامي هو التقليل من شأن الجسد، ليس بمجرد تفضيل الجانب الروحي على الجانب الجسدي المادي، بل كان في كثير من الأحيان دعوة إلى عدم الاهتمام بالجسد، وإلى "قهره وترويضه وإخضاعه"، فماذا كان الدافع خلف هذا الفكر؟

في اعتقادنا ربما يكون أحد الأسباب الرئيسية خلف هذا الاتجاه هو ما جاءت به نصوص القرآن والسنة من التقليل من شأن الحياة الدنيا بالقياس إلى الآخرة، وقد كان سمة بارزة في آيات القرآن الكريم عقد المقارنة بين الدنيا ومتاعها وزينتها وبين متاع الآخرة، وقد عد العلماء الجسد الإنساني شيئًا ماديًّا ينتمي إلى الدنيا الفانية المذمومة، وبالتالي رأوا أن الاهتمام بالجسد اهتمام بالدنيا، ورأوا كذلك أن هذا الاهتمام لابد أن يأتي على حساب الاهتمام بالآخرة.

ومن أبرز الآيات والأحاديث التي ربما مثلت مستندًا للعلماء في تبني هذه الرؤية:

قوله تعالى: ﴿**مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [سورة هود الآية ١٥]

وقوله تعالى: ﴿ **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ**﴾ [سورة القيامة الآية ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ**

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ [سورة الحديد الآية ٢٠].

وحديث النبي (ﷺ): «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».(١)

وكذلك قوله (ﷺ): «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».(٢)

وما تُشعِر به هذه النصوص لأول وهلة هو كون الدنيا لا تستحق أي عناء أو اهتمام، وكل ما يتعلق بالدنيا فهو بدون قيمة، وبذلك فهم العلماء أن الجسد الإنساني لا نفع فيه في حد ذاته، باعتباره جزءً من الدنيا، وعليه فقد وجهوا كل النصوص التي تتحدث عن الجسد إلى ما يتعلق بالعبادات أو الجهاد كي يصرفوا تلك النصوص إلى جانب الاهتمام بالآخرة.

وربما كان هذا الفهم والتوجيه مبالغةً إلى حد ما في فهم النصوص التي تذم الدنيا وتفضل الآخرة عليها، فلا يمكن أن تكون هذه النصوص دافعة إلى إهمال الجسد وتحقيره بهذه الصورة التي رأيناها، ويدل على ذلك أمران:

الأول: النصوص التي نقلناها في المبحث الأول، والتي تبدو لنا واضحة الدلالة إلى حد كبير على ضرورة الاهتمام بالجسد الإنساني، دون أن يَرِدَ فيها ما يشير إلى العبادات والشعائر، وقد رأينا كيف لجأ العلماء على الدوام إلى تخصيصها أو تأويلها.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الزهد، برقم ٢٣٧٧، وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الزهد والرقائق، برقم ٢٩٥٦، وربما ربط الفلاسفة المسلمون بين هذا الحديث وبين ما نقلناه من نصوص أفلاطون وأفلوطين عن اعتبار الجسد قيدًا للنفس وقبرًا لها.

الثاني: أن كثيرًا من النصوص التي وردت في ذم الدنيا تشير بوضوح إلى أنها مذمومة متى كان الاهتمام بها على حساب الاستعداد للآخرة، أو متى كان مصحوبًا بإنكار الآخرة والاستهزاء بها، ويبدو لنا ذلك واضحًا في عدد من الآيات، منها:

١- قوله تعالى: ﴿ **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ**﴾ [سورة القيامة الآية ٢٠].

٢- وكذلك قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [سورة يونس الآية ٧].

٣- وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا**﴾ [سورة الإنسان الآية ٢٧].

فيمكن القول إذن إن من يهتم بجسده باعتباره هو وجود الإنسان الوحيد دون أن يكون له بعث بعد الموت، أو من يهتم بجسده من أجل التكبر على الناس أو إيذائهم أو لأي غاية لا تتفق مع مقاصد وأوامر الشرع أو تتعارض مع الاستعداد للآخرة فهو واقع فيما نهت عنه النصوص التي تذم الدنيا وتحقرها، أما من يهتم بجسده دون أن يترتب على ذلك أيٌّ مما سبق فهو ممتثل للنصوص التي تدعو للاهتمام بالجسد الإنساني، ومثاب على فعله هذا حتى ولو لم يكن ذلك مرتبطًا بالصيام وقيام الليل والجهاد في سبيل الله، كما يثاب على امتثاله للأمر بأداء أي عبادة أخرى.

وبمثل ذلك التوجيه يمكن العدول عن تلك الثنائية المتنافرة التي رأيناها كثيرًا في الفكر الإسلامي بين الروح والجسد، فالعمل لصالح الجسد لا يكون مذمومًا إلا إذا أخل بصلاح الروح، ومن الممكن أن يهتم الإنسان بجسده دون أن يأتي ذلك على حساب أخلاقه وروحه، إذ ليس العمل لصالح أحد الجانبين إهمالاً

للآخر بالضرورة، فالإنسان كائن واحد ركبه الله من جسد وروح، ولا يمكن أن يكون هذا التركيب بين شيئين متنافرين متعاكسين.

إننا بحاجة إلى أن يكون المؤمن قويًّا في إيمانه وقويًّا في جسده قدر استطاعته، ولا تعارض بين الأمرين، بحاجة إلى أن يكون المسلم صحيح العبادة صحيح الجسد، ولا تعارض بين الأمرين، بحاجة إلى أن يكون المؤمن مدعاة للفخر والإعجاب بروحه وأخلاقه وبجسده أيضًا ولا تعارض بين الأمرين.

ولكن كيف يكون المؤمن القوي إيمانًا وجسدًا خيرًا وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف إيمانًا وجسدًا وقد كان من الصحابة الكرام من هو ضعيف الجسد ومن العلماء الأفاضل من كان ضعيف البنية؟ هل يعني ذلك أن مَنْ كان مِن آحاد الناس قوي البنية خير وأحب إلى الله من هؤلاء؟

في رأينا لا يزال ذلك السؤال – وما كان على شاكلته – يدور داخل فكرة التعارض بين الجسد والروح، ولا يلتفت لما قلناه من كون الروح والجسد مكونين غير متنافرين لإنسان واحد، فكل إنسان منحه الله رزقه من الإيمان والقوة الجسدية، فمن سعى في استثمار ما منحه الله إياه فحافظ عليه وعمل على تقويته فهو خير وأحب إلى الله ممن أهمل العمل على الجانبين أو أحدهما، فالخيرية هي بقدر العمل على تقوية كل من الروح والجسد في حدود ما كتبه الله لكل فرد، فمن ابتلاه الله بضعف في جسده وبذل جهدًا مضاعفًا في تقوية روحه وأخلاقه فهو خير من قوي البدن الذي لم يبذل أي جهد، لأن كلا الجانبين – كما قلنا – ينتهيان إلى شيء واحد وهو الإنسان المسلم نفسه.

وإذا كانت تلك الأجساد التي لنا اليوم تتطهر صفاتها لأهل الجنة فإن أرواحهم وأخلاقهم يطهرها الله تعالى بفضله كذلك، ففي نفس الحديث الذي وصف فيه النبي (ﷺ) تطهير أجساد المؤمنين من أهل الجنة: «صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون فيها»،

ذكر عقيب ذلك تطهير أخلاقهم فقال: «لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد».[1]

لا شك لدينا اليوم أن إتباع حمية غذائية من أجل الوصول بالبدن إلى وزن مناسب، أو أداء التمارين الرياضية المنتظمة بهدف تقوية مختلف أجزاء الجسم وتحسين ما نسميه باللياقة البدنية، أو ممارسة أحد أنواع الرياضة التي تقوي البدن – لا شك لدينا أن كل تلك الأنشطة لها العديد من الفوائد، ليس فقط على المستوى الجسدي، بل على جميع أنشطتنا الحياتية الأخرى، من تحسين حالة الفرد النفسية والعقلية، وتجنيبه الإصابة بكثير من الأمراض، وتعزيز ثقته بنفسه، وتقوية عزيمته وإرادته، وكل ذلك ينعكس بشكل إيجابي على حياة الفرد بأسرها، وعلى حياة المجتمع المسلم كله بالضرورة.

فكيف يكون تأثير إيماننا بذلك الواقع الذي نعيشه إلى جانب فكر ديني أو تراثي يطالب بقهر البدن ويرى أن ترك التداوي قد يكون أفضل؟ إن النتيجة الضرورية لهذه الحالة هي الانفصال بين الواقع وبين الفكر الديني أو ما يمكن تسميته: ثنائية متضاربة بين الفكر والواقع، الفكر الذي يرى في الجسد شرًّا يجب قهره، والواقع الذي يرى في الجسد نعمة يجب استثمارها.

إن تلك الازدواجية أو الثنائية التي تؤدي إلى القيام بأفعال تسير عكس الاتجاه الذي يسلكه الفكر واحدة من أهم أسباب ضعف واهتزاز شخصية المسلم، تجعله متحيرًا مشتَّتًا بين الفكر الذي يتبناه والواقع الذي يعيشه، ولا نبالغ إذا قلنا إنها بشكل أكثر عمومية أحد الأسباب التي تؤدي إلى اتخاذ موقف متطرف إما بالتشدد الديني أو بالتخلي عن الدين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم، برقم ٢٨٣٤، وقد سبق تخريجه.

والملفت للنظر بخصوص المسألة التي يناقشها هذا البحث هو ورود نصوص صريحة يؤيد معناها ما نلمسه اليوم في واقع حياتنا، لكن النظرة أحادية الفهم للنصوص الدينية قامت بـــ"تأويل" تلك النصوص دون أي دليل سوى فهمها المخصوص للدين.

الخاتمة

نتائج البحث

١- ورد في القرآن والسنة العديد من النصوص التي تعطي للجسد الإنساني مكانة مهمة في حد ذاته، وتدعو للاهتمام به وتأدية حقه ورعايته والحفاظ عليه وتقويته.

٢- رغم هذه النصوص الواضحة لم يكن الجسد في الفكر الإسلامي غالبًا محل تقدير، بل تم التقليل من شأنه كثيرًا في مقابل الروح، بسبب فهم مخصوص لمفهوم تفضيل الآخرة على الدنيا، وهو ما أدى إلى تأويل تلك النصوص وصرفها إلى ما يتعلق فقط بالعبادة والشعائر والجهاد في سبيل الله، كما تعزز هذا الاتجاه لدى الفلاسفة المسلمين بالجانب الذي تأثروا به من الفلسفة اليونانية.

٣- يمكن توظيف النصوص الدينية التي تعطي للجسد مكانة مهمة في وضع أساس فكري ديني لكثير من الأنشطة الجسدية التي نقوم بها في حياتنا اليوم، والتي تكاد فائدتها الكبيرة تصبح محل إجماع.

المراجع والمصادر

القرآن الكريم

ابن أبي زمنين

١- تفسير القرآن العزيز، تحقيق: حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

ابن الملك

٢- شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، تحقيق ودراسة لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، إدارة الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

ابن باجة

٣- تدبير المتوحد، سراس للنشر، تونس، ١٩٩م.

ابن بطال

٤- شرح صحيح البخاري، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

ابن سينا

٥- الإلهيات من كتاب الشفاء، ضبط وتحقيق أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح، والمستشار توفيق علي وهبة، دار الخلود للتراث، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٦- النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، نقحه وقدم له الدكتور ماجد فخري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

ابن كثير

٧- تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

ابن مودود الموصلي، عبد الله بن محمود

٨- الاختيار لتعليل المختار، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.

أبو داود

٩- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، بدون.

أرسطو

١٠- علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.

أفلاطون

١١- المحاورات الكاملة لأفلاطون، نقلها إلى العربية شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٤م.

البخاري، محمد بن إسماعيل

١٢- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

بدوي، عبد الرحمن

١٣- أفلوطين عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.

برهان الدين الحنفي

١٤- المحيط البرهاني في الفقه النعماني، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٢٤٢هـ/٢٠٠٤م.

البهوتي الحنبلي

١٥- دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.كشف القناع عن متن الإقناع، دار الكتب العلمية، بدون.

الترمذي، محمد بن عيسى

١٦- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

الجوزي، أبو الفرج

١٧- كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض.

الرازي، فخر الدين

١٨- مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

الزمخشري

١٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

السندي، نور الدين

٢٠- حاشية السندي على سنن ابن ماجة، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

الطاهر بن عاشور

٢١- التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

الطبري، محمد ابن جرير

٢٢- جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

طنطاوي، محمد سيد

٢٣- التفسير الوسيط، دار نهضة مصر، الفجالة، الطبعة الأولى من ١٩٩٧م إلى ١٩٩٨م.

العظيم آبادي، شرف الحق

٢٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

عياض، القاضي عياض

٢٥- شرح صحيح مسلم المسمى إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق دكتور يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، طبعة أولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

الغزالي، أبو حامد

٢٦- إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

فورفوريوس الصوري

٢٧- تاسوعات أفلوطين، نقله إلى العربية عن الأصل اليوناني الدكتور فريد جبر، مراجعة الدكتور جيرار جهامي والدكتور سميح غنيم، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

القاري، الملا الهروي

٢٨- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

القاري، الملا علي

٢٩- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

القسطلاني، شهاب الدين

٣٠- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، الطبعة السابعة، ١٣٢٣هـ.

٣١- **الكتاب المقدس**

المباركفوري

٣٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

المراغي، أحمد بن مصطفى

٣٣- تفسير المراغي، طبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

مسلم بن الحجاج

٣٤- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

مصطفى عبد الرازق

٣٥- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ٢٠١١م.

المظهري، مظهر الدين الحسين بن محمود

٣٦- المفاتيح في شرح المصابيح، تحقيق ودراسة لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

المناوي، زين الدين

٣٧- التيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣٨- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.

النووي، يحيى بن شرف

٣٩- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

يوسف زيدان

٤٠- حي بن يقظان، النصوص الأربعة ومبدعوها، دار الأمين، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص باللغة العربية	٢٣٥
الملخص باللغة الإنجليزية	٢٣٧
مقدمة	٢٣٩
المبحث الأول: مكانة الجسد الإنساني من خلال تفسير العلماء لنصوص القرآن والسنة	٢٤٣
المبحث الثاني: مكانة الجسد الإنساني من خلال الفلسفة الإسلامية	٢٥٤
المبحث الثالث: رؤية نقدية لمكانة الجسد الإنساني في الفكر الإسلامي	٢٦٠
الخاتمة	٢٦٦
المصادر والمراجع	٢٦٧
فهرس الموضوعات	٢٧٢